القوافل الصحية والحوار الجماهيرى ماالذى حققه جمهور العريش؟

د. محمد شعلان

أشرنا إلى أن للظاهرة وجهين يكملان بعضهما بعضا . ومظاهرها بالقافلة والجمهور . وتناولنا بالتحليل أهداف القافلة ودوافعها . والآن نتعرض بالتحليل للوجه الآخر والمكمل الذى أكدنا أنه ليس مجرد الجانب المتلق والمفعول به ، ولكنه أيضا يعطى ويفعل . فما الذى أعطاه الجمهور وما الذى هدف إليه وحققه ؟

الجمهور :

إن مواطنى المناطق النائية المتطرفة بصفة عامة دائما يشربون الشكوك كما أنهم يعانون من القلق وحيث إنهم على الأطراف ويبعدون عن مركز السلطة فى المجتمع فهم يتمتعون بدرجة من الحرية بعيدا عن السلطة المركزية .

فالفرد فى المدينة مثلا عليه أن يتبع النظام ويسير وفق القانون . وإذا تمرد فهو فى موقع المخالف للقانون . وعليه أن يلبس ويأكل ويسكن مثلما يعمل الناس . بينما مواطن الأطراف وخاصة البدوى يستطيع أن يأخذ ناقته ويذهب إلى الصحراء أو يعبر الحدود فى أى اتجاه داخليا أو خارجيا .

وهم من جانب آخر يعانون من القلق . فالمسافة بينهم وبين الوطن الأم تجعلهم يشعرون كأنهم الابن المهمل . فهم لا يتلقون ذات الاهتمام الذى يتلقاه مواطنو المدن المركزية . وصوتهم لا يسمع . بل إن التاريخ قد علمهم أنهم من الممكن أن يتلقوا من حيازة دولة إلى حيازة أخرى . فاجلك عن اختلاطهم الاجتماعى والاقتصادى عبر الحدود مع هذه الدولة أو تلك .

هكذا جمهور العريش فقد تأكدت له هذه الحقيقة المؤلمة عبر التاريخ الحديث مرتين .

فى ١٩٥٦ حيث لم تستمر الفرقة إلا شهورا وفى ١٩٦٧ حيث استمرت التى عشر عاما لقد انتقلت تبعيتهم بين الحكومة المصرية تارة وبين الحكومة الإسرائيلية تارة أخرى . وكانت كل سلطة تعالب بضراوة كل من كانت له تعاملات مع السلطة الأخرى .

وكان الاتصال بين أبناء سيناء والوطن الأم أشبه بالاتصال بين مواطنى الدول الأجنبية . فالتصاريح عملية متبعة تقف فى طريق التفاعل الطبيعى بين المجتمع الأم والمناطق النائية . وكان كل من يذهب إليها أو يأتى منها يعبر عبرا .

أولا الشيوخ :

مواطنو العريش أيضا جيلان ملئ الشباب والأساتذة . فالجيل الأول عرفى أصيل بل هو أصل العروبة . كان يتنقل بيسر بين الشام (تعنى فلسطين والأردن ولبنان وسوريا) من جانب والجزيرة العربية من جانب آخر . وهذا استمرار للطابع البدوى الذى يتنقل من موقع إلى موقع . ويتعامل مع كل جار يعارفه على مواجهة قسوة الحياة دون أن يدعن لأحد أو يذيب هويته . وإذا كان قد فعل ذلك فإنه لم يتخل أبدا عن هويته العربية بدليل مرور التى عشر عاما من الاحتلال استجاب البعض منهم لها يخالف مصالحهم الاقتصادية والاحتكاك بقوات التحرير .

فهم لم يعترفوا بإسرائيل أو يعرفوها حقيقة . والاستعمار بالنسبة لهم ليس كل من يتسلط عليهم أو يتميز عنهم أو يتعامل عليهم . بل كل ما يعرفونه أن هناك هوية عربية وهوية يهودية .

ولكنهم كانوا فى حاجة لأن يعيشوا . إن فترة التى عشر عاما من الاحتلال تفرض التعامل من أجل البقاء . . قد تستمر المقاومة نفسية ، أو تظهر منها طفرات مادية بين حين وآخر وتتقدم بطولات هنا وهناك تعبر عما فى داخل النفوس . ولكن المعادلة الحياتية لابد أن ترجح التعايش .

لقد تعايشوا مع « اليهود » وتعاملوا معهم لا محالة دون أن يؤثر ذلك على ولائهم الحقيق لداخل ، بل زادهم ولاء لعروبتهم ، فهم رغم كل الحقوق المدنية التى أتيحت لهم كأفراد كانوا يدركون أن العروبة لا تدنى لها مع اليهودية . فالانتماء الاجتماعى المستمر عبر حتى لو كان التعامل الفردى والمؤقت مع إسرائيل .

هكذا كان أول درس لقدمه شيوخ العريش : كيف تتعامل مع الآخر دون أن تذوب فيه أو تخضع له ، كيف تستمر عربيا رغم تعاملك مع « اليهود » ؟ وكيف لابد من مواجهة حقيقة المشكلة أن إسرائيل هى فى جوهرها تأكيد وبحث عن هوية يهودية . وليست مجرد مخلب قط للاستعمار كما يحلو لنا أن نبسط الأمور ، وأن « اليهود » مهما كانوا يريدون المواطنة فى المنطقة دون أن يعاملوا على أنهم مجرد عميل أو جسم غريب زائل . لقد تعاملوا مع « اليهود » باللغة العربية التى يجيدها الكثير منهم . بل إن حاكم العريش فى فترة ما كان من أصل مصرى . وأبعد من ذلك استطاع أن يشاركهم العزاء فى وفاة الرئيس الراحل عبد الناصر .

ومن جانب آخر يبدو أن المعاملة مع السلطات الإسرائيلية مرت بمرحلتين الأولى قبل ١٩٧٣ حتى كانوا يعاملون معاملة النوالب البشرية التى تلوث منطقة حدود إسرائيل الجديدة وهى منطقة سيناء . وبعد ١٩٧٣ كانوا يعاملون معاملة تم عن إمكانية أن يصبحوا أصدقاء . وهى صداقة قد تعود على إسرائيل بالفائدة أيا كان اتجاه المستقبل نحو الحرب أو السلم . فى حالة الحرب فإن الصديق معونة ومصدر معلومات . وفى حالة السلم معبر نفس يقرب بين طرق النزاع السابق وتعاملت معهم السلطة الإسرائيلية على أساس هويتهم العربية المستقلة . كأنهم يجبرون معهم ما إذا كان من الممكن أن يتعايش العرب واليهود . بل إن التجربة مشابهة فى غزة حيث نجحت إسرائيل فى التعامل مع للات قواعد .

الأولى من العاملين بالصناعة والتجارة الذين يتعاملون مع أشقائهم الإسرائيليين والثانية من العاملين بالزراعة والتجارة الذين يتعاملون مع الأردن ومن خلالها الدول العربية (وبهذا تكون الدول العربية قد سبقت مراحل فى عملية التطبيع الاقتصادى مع إسرائيل بينما هى محتفظة بحق لوم مصر مجرد إعلانها نية التطبيع حتى قبل أن تترك ساحته بكل طاقتها) .

والثالثة ممن ليست لهم مصالح مباشرة ويمكن أن يتعاملوا مع السلطات الفلسطينية المختلفة .

والتعامل معناه أن إسرائيل تستفيد من

الثلاث . فى الأولى لتأكيد ما جريته فى العريش ولم نجن ثماره بعد وهو أن نوفر كتلة من البشر تقوم بدور المعبر النفسى بين اليهود والعرب محليا (أى داخل نطاق الأراضى التى نسيطر عليها إسرائيل) .

والثانية لتحقيق تطبيع العلاقات مع الأمة العربية حتى لو جمدت مصر هذه الخطوة معها أو عطلتها .

والثالثة لاستخدام الفلسطينيين لتصفية بعضهم توفيرا على أجهزة الإرهاب المضاد من المخابرات الإسرائيلية من القيام بذلك . فالمنظمات الفلسطينية رغم أنها على المستوى القيادى تمثل أكثر التنظيمات العربية تقدما فى الحوار الديمقراطى فيما بينها فإنها من الصعب أن تنفصل تماما عن الجهات العربية وغير العربية المؤيدة لها التى تتعامل مع بعضها ومع غيرها بالعاملة التعسفية الحسنة . وما على المخابرات الإسرائيلية إلا أن تخفف قبضتها قليلا حتى يتحقق المراد وهو أن يقتل عربى عربيا آخر . وما يحدث فى غزة ليس إلا تصغيرا لما يحدث خارجها . سواء بين الأفراد أو المنظمات أو الشعوب أو الحكومات .

فإسرائيل لم تعد فى حاجة إلى قتل العرب مباشرة فهم يتولون عنها فى قتل بعضهم البعض .

بينما مصر فقدت ما تبقى لها من قدرة على الاحتفاظ بدرجة . مهما كانت محدودة من الولاء من قبل سكان غزة ، وذلك بأن حفظت أعداد الطلاب الوافدين منها . الأمر الذى اضطرهم إلى الذهاب إلى دول أوروبا الشرقية لتلقى العلم وتنمية ولاء للكتلة الشرقية . وخاصة أن الدراسة فى الدول العربية الأخرى محدودة علاوة على أنها مكلفة وهو أمر يستوجب إعادة النظر من قبل مصر . ويتهيأ إليه شباب العريش كما سوف نبين بعد قليل .

لقد قدم الشيوخ فى العريش لمصر هذا الدرس : إن التعايش السلمى ممكن بين العرب واليهود مادام يحترم كل منهما هوية الآخر . ويعطيه حق ممارسة حياته وهويته فى أرضه .

ويلخص أحد الشيوخ كيف إنه كان يتاجر فى السمك . واعترضه فى الطريق ضابط إسرائيلى وجنوده . وطلب الضابط سمكة وعرض على التاجر ثمنا أقل بقليل من سعر السوق ، نظرا لأنه لم يكن قد تحمل بعد أعباء البيع بالتجزئة . فرفض التاجر بعنف واختطف السمكة من يد الضابط بعد أن أعدمها . فلما همس الجنود فى أذنه بأنه الضابط . لم يأبه وقال إنه يستطيع أن يشكوه للحاكم الأكبر منه ويأخذ حقه . واكتفى الطرفان بذلك عن النزاع بأن هذا ممكن . فقد أيقن الجميع أن سيادة القانون فوق كل منصب وكل جنسية وكل محسوبية حتى وهو الاحتلال . شىء واحد كانوا يعلمون أنه يشكل استثناء : وهو تعرض أمن اسرائيل للخطر وأمن إسرائيل كما نعلم مفهوم مطاط وهنا تضطرب تماما قيم الإنسانية والعدالة .

ويقص شيخ آخر كيف إنه أغلق محله التجارى تماما طيلة فترة الاحتلال معللا احتجاجه عليه ومكلفا نفسه خسارة اقتصادية كبيرة . ولم تتعرض له السلطات بسوء . وتستمر قصص الإحساس بالحرية حتى بعد زوال الاحتلال الإسرائيلى . إذ حينما تولى أول محافظ مصرى حاملا معه العقلية العسكرية التقليدية (ملخصها أن سكان الحدود شواذ بشرية تعطل وظيفة الحدود) احتجوا على معاملته . وثاق الرئيس السادات رسالتهم بروح ديمقراطية طيبة ولبى طلبهم بأن غير طريقة التعامل معهم .

كان الكثير من الشيوخ شديدى الحساسية فى بداية الأمر لمن كان يشكك فى ولائهم أو عروبتهم . فبالغوا فى تأكيدها وإظهارها وبالغوا أيضا فى إخماد أى صوت من بينهم . وخاصة من الشباب . يشير بالخير إلى ذكريات الاثنى عشر عاما . وكانوا فى بداية الأمر يفعلون ذلك مجاملة لضيوفهم القادمين من القاهرة إلى أن تيقنوا أن ضيوفهم هم ممن يرون فى المجاملة إهانة . بينما المواجهة الصريحة تعبير عن محبة . عندئذ فقط فتحوا قلوبهم .

لنا أيضا الشباب : وهؤلاء بعضهم قد تكونت شخصيته منذ الطفولة وعبر اثنى عشر عاما تحت ظل الاحتلال . بينما البعض كان يحمل بعض الذكريات عن مصر .

الطفل الذى ينفصل عن أبيه أو أمه لظرف أو آخر . ثم يجد هناك من حل محلها (أو أحدهما) ورعاه . قد يعود على الوالد الجديد ويتخذه بديلا حقيقيا . وقد ينسى الوالد الأصلى وخاصة إذا كان السبب فى انفصاله عنه نهائيا كالموت أو الطلاق البين أحيانا . ولكنه كثيرا ما يرفض الوالد الجديد ولو جزئيا . وقد يعين نفسه على تحمله بما فيه من عيوب بأن يقول لنفسه إنه مضطر للتعايش معه وأنه لو ترك له الاختيار لفضل أن يعيش مع والده الأصلى . ويأخذ فى تخيل الصفات الحميدة فى الوالد الغائب بينما يسقط الصفات الرديئة على الوالد الذى يعيش معه .

هكذا فعل بعض شباب العريش الذين تقبلوا « الوالد » الإسرائيلى على مضض . بينما كانوا مجذوبين بالصدر الحنون للوالد المصرى الغائب . كانوا فى أحلامهم يمجدون مصر ويعتزون بها . ولكن واقعهم كان مليئا بالتعرض اليومى لتأثير الوسائل الإعلامية والتعليمية الإسرائيلية . وهو تأثير مازال مستمرا بفضل ضعف الإرسال الاسلكى (واللاسلكى أيضا) من جانب مصر .

كثيرا ما كان هذا التأثير مأساويا لما يتلقونه من تربية فى منازلهم . هل سيناء جزء من مصر أو هى جزء من إسرائيل ؟

وأين نذهب نحن فى هذه الحالة ؟ هل نحن عرب ومسلمون ؟ إذن فلماذا تمنع عنا بعض الآيات القرآنية التى تتعلق باليهود ؟ وكيف نتعرض لهذه الإثارة الجنسية التى تدخل منازلنا على الشاشات الصغيرة ؟ أى ليس تلبس وأى مسلك نسلك ؟ وغير ذلك من تساؤلات تعكس ذلك التناقض الطبيعى بين ما ينشأ عليه الطفل فى منزله وما يلقاه ويتلقف عليه فى المجتمع الجديد .

إنه تناقض حاد . لعله يعكس التناقض بين القديم والجديد . وبين الشيوخ والشباب . ولكنه أخذ شكل التناقض بين العروبة واليهودية .

ولعل مما يضاعف من حدة التناقض أن الجديد المطروح من الناحية الفعلية ليس بكل هذا السوء . فمن من الشباب لا يحلم فى داخله بأن يحل محل والده ويؤكد هويته فى مواجهته والثقافة الإسرائيلية وإن كانت تمثل بديل الأب المصرى فهى أيضا البديل للأب الأسرى . والشاب الذى يريد أن يتحرر من سلطان والده كثيرا ما يستعين بوالد خارجى فى المجتمع . الإغراء الطبيعى أن يستعين الشاب بالوالد البديل أو الجديد لكى يحرر نفسه من اعتماده على الوالد القديم . والوالد الجديد يعلم ذلك ويقدم له من الإغراءات ما لم يكن الوالد الأصلى يقدمها .

فرص العمل مع المؤسسات الإسرائيلية التى تدفع أجورا عالية نسبيا أتيحت للشباب ، أتيحت لهم حينما احتاجت إسرائيل لمساعدتهم لتبنى خط بارليف وتدافع عنه . وحينما احتاجت للأيدى العاملة الرخيصة نسبيا حتى يرتضى العامل الإسرائيلى فيعمل عملا أكثر مهارة وأكثر أجرا .

وكذلك قدمت إسرائيل نمطا حضاريا مختلفا يجذب الشباب ويحقق لهم رغبتهم الطبيعية فى الاستقلال عن الوالد الأسرى . فالعلاقة بين الكبير والصغير . أو الضابط والجندى أو الرئيس والمرءوس فى إسرائيل لا تحكمها المسافة الكبيرة التى تفصل بين مثيلاتها عند العرب . العرب بالمقارنة يبالغون فى احترام أو خوف الصغير فى مواجهة الكبير . أو إذا نظرنا بنظرة نسبية فقد نقول إن الإسرائيليين يبالغون فى المساواة بين الكبير والصغير . المهم أن نمط العلاقات عندهم أكثر جاذبية للشباب .

وينطبق ذلك على العلاقات بين الجنسين التى تتميز عند الإسرائيليين بحرية ومساواة لم يحلم بالأولى منها الشاب العربى ولا بالثانية منها الشابة العربية . نعم الشاب يريد الحرية والشابة تريد المساواة . ولكن مواجهة كل هذه الإغراءات الحضارية أمام جاذبية الانتماء الأسرى وما يرتبط به من قيم حضارية تحالفت لجذ الشباب العربى فى العريش يتأرجح بين التطلع للجديد والتشبث به . حتى لو كان إسرائيليا . وبين الإفراط فى التمسك بالقديم والتطرف فيه . فهناك أنماط من التدين والوطنية يشبه ظاهرة التطرف الدينى والسياسى فى العالم أجمع فى عصرنا هذا . وأحيانا يكون التوزيع على هيئة التطرف الظاهرى الذى يخفى التطلع الداخلى . وهو النمط الذى كانت تتميز به الفتيات أكثر من الفتيان .

الشباب من الذكور أغراهم العمل عبر الحدود وما يصاحب ذلك العمل من أجر مرتفع وتحرر من سلطة الأب الأسرى وقيمه الحضارية . وتسرعهم فى الحصول على هذه الحرية جعلهم يتركون التعليم . وفى ذات الوقت وفرت إسرائيل التعليم للفتيات دون الفتيان الذين فضلتهم عمالا . فالفتى أصبح يملك الحرية والقوة الاقتصادية بينما الفتاة تتسلح بالعلم والثقافة . وأمام هذا الانعدام المتماثل فى العلاقة بينهما تجد الفتى وقد عاد بالاستقلال الاقتصادى الذى يمكنه من إقامة أسرة مستقلة فى سن مبكرة بأن يتزوج . ولكنه يتزوج من فتاة متفقة تعرضت لقيم المساواة بين الجنسين وتشبعت بها دون أن تملك القوة الاقتصادية التى تسمح لها بالمطالبة بتحقيقها . وهى لذلك تشكل بالنسبة لفتاها قيمة الحق بلا قوة فى مواجهة القوة بلا حق . وكما هو الحال فى مثل هذه المواجهة تجد القوة تزداد بطشا بالحق .

ومع ذلك فتاة العريش قوية بثقافتها رغم ضعفها الاقتصادى . مادام فتاها يتنازل لها عن قوته الاقتصادية فى مقابل حبها له .

ولكن الأمر تغير بعد انتهاء الاحتلال . إذ أن فرص العمل والأجور العالية لم تعد متوافرة . وبناء عليه فقد ضعفت قوته الاقتصادية ولم يعد قادرا على رعاية فتاته . فارتفعت نسبة الطلاق ووقعت إلى السطح مشاكل الفتاة التى بلا عائل يرعاها .

وعما أن الدم لا يرتفع ولا الأماني . فلابد من مواجهة الصدمة بما يخففها . لعلها العودة إلى القيم الدينية والمبادئ الوطنية التى تعاون الإنسان على تحمل المصاعب .

والشباب فى العريش فى حاجة إلى رعاية . ولعل أول إنجاز فى تحقيق تلك الرعاية هو الإحساس بالمشاركة مع إخوانهم

فى الوادى وحين يشتركون

الطرفان فى تشخيص مشاكلهم الشبابية والبحث سويا عن علاج للروح فى الأفاق بوادر الأمل .

ومن العلامات الشابات تبرز الأستاذة شاهيناز الشورجى كمثال للقوة والثقافة والحس الوطنى الصادق .

إن ما أذهل الأستاذة شاهناز الشورجى هو معاملتها فى مصر كأنها أجنبية غريبة بل شبه جاسوسة حتى يثبت العكس من قبل الجامعة فى مصر التى حضرت إليها لتدرس إبان الاحتلال . وما أسعدها هو شعور الإخوة والانتماء الذى عبرتها به الزمالة بعد ذلك والذى تأكد وتكرر بزيارة هذه القافلة من الشباب لها فى بلدتها